التربية الوطنية فى مصر

للأستاذ عماد الدين عبد الحميد

المحقق بمصلحة الآثار

من المسائل مالايحتاج إلى تدليل على صحته، ومن هذا أن قوة الروح المعنوية فى الأمم، وأن نشأة الشعوب نشأة قومية، وأن حب الآحاد لأوطانهم حبا يجعلهم يقبلون مسرورين جميع التضحيات فى سبيل صيانة هذه الأوطان والسمو بها ؛ أن كل هذه المعانى لايمكن أن يجىء عفوا أو أن يوجد مصادفة، لكنه يتم بتدبير محكم، وفق سياسة مرسومة قد يخضعان إلى حد ما لتأثير الطبيعة ، لكنهما يجب أن يكونا إلى حد بعيد من صنع هذه الأمم عامة ، ومن صنع الموجهين لدفة سفينتها خاصة .

انتبهت أمم حية إلى هذا من زمن ، وأيقنت أن قوة جيلها الحاضر وأجيالها المستقبلة لا يتسنى أن تكون كاملة — أو أن تكون كافية لتحفظ للأمة كيانها — إن هى تركت للطبيعة وحدها تصونها وتنميها .

انتبهت لهذا أمم يختلف نظام الحكم فى بعضها عنه فى البعض الآخر ، انتبهت له أمم نظام حكمها (ديموقراطى) وأخرى نظام حكمها (دكتاتورى) . لكنها جميعا جعلت من أول أسس حياتها أن تنشأ الأجيال متتابعة تنشئة تضمن لها القوة اللازمة ، وتحقق لها ما ترجوه من أن تكون دائما سيدة نفسها ، إن لم تكن — كما قد تحب — سيدة غيرها من الأمم .

ووضعت الدول لهذا نظما ، لها قواعد وحدود معلومة ؛ وحتمت أن تسرى هذه النظم فى البيت وفى المدرسة وفى الطريق وفى كل مكان . . . ولا أكون مغاليا إذا قلت إن هذه الدول قد راعت تنفيذ هذه السياسة فى الجو وفى البحر وعلى رعاياها فى البلاد الأجنبية .

فهل أستطيع أن أعرف لمصر سياسة معلومة فى التربية الوطنية ، تؤدى إلى الغرض المرجو من هذه التربية . . . ؟ هل أستطيع أن أقول إن أجيال هذه الأمة — منذ مائة عام على الأقل — نشأت فى سياج من التربيب ، يجعلها تعرف حقوقها وواجباتها ، فتقدس حقوقها بأن تمتع نفسها بها ولا تسمح بأن تمس هذه الحقوق بضر ، وتقدس واجباتها فتؤديها راضية قانعة ؟

وهل أستطيع أن أقول : إن الجيل الجديد ، الجيل الحر المستقل . . يربى اليوم لينشأ وهو يحب بلاده ويؤثرها بالحياة دون نفسه ، ويفهم جيدا لماذا هو يحب بلاده ولماذ هو يؤثرها بالحياة ويؤمن بما يفهم جيدا و إيمانا يجعل هذا الحب أو هذا الإيثار

مبنيا على عقيدة سليمة راسخة ، وليس قائما على ظواهر وقتية من الحماسة والاندفاع ،
وليس مصطنعا اصطناعا من كلمات تردد كالوطن والحرية ، دون أن يكون لمثل هذه
الكلمات ما يجب أن يكون لها من معنى معلوم ، مدروس بالعقول ، مستقر فى الأفهام ؟

إنى أود أن أجيب عن هذا بالإيجاب ، ولكنى لا أستطيع أن أجيب إلا بالنفى !

فبيوتنا ماتزال لا تعرف سياسة وطنيـة فى تنشئة الأجيال . أنا ما أزال وأدنى يزلها أحدوثة كأحدوثة " الدبة الثلاثة " تلقى كل ليلة وكل نهار فى مسامع الأطفال ، ولا تلقى قصة بطولة لبطل من الأبطال !

أليس مثل هذا واقعا . . ؟ أليس هذا التلقين الخرافى هو ما يملأ رأس الطفل حتى يغدو صبيا ، ثم يتلوه — إذا ما غدا صبيا وشابا — تلقين إجرامى هو أنه يجب ألا يهتم بمسائل السياسة والوطنية حتى يصـير رجلا . . . فإذا ماصار رجلا أحيط بمحيط من ترددات الحسرة واليأس من أن تكون حال البلاد خيرا ممـا هى عليـه ، وأن الخير كل الخير فى أن يعمل لنفسه دون سائر الناس ، وأن للبلاد ربا يحميها !

هكذا تلقن الوطنية فى البيوت . . . وأما فى المـدارس فإن حديث الوطنية يكاد أن يكون من الممنوعات إن لم يكن منها فعلا . . والتربية الوطنية فى المدارس دروس كسائر الدروس أو أقل منها قيمة ، تلقى فى أوقات قصيرة متباعدة قد لا تستغرق أكثر من ساعة فى كل أسـبوع . وعاما تلقى على تلاميذ فرقة ما بالمدرسة الابتدائية ، وعاما ثانيا تمحى من المدارس الابتدائية وتقرر لفرقة ما بالمدارس الثانوية ، وعاما ثالثا تمحى من برامج هذه الفرقة لتضاف الى برامج فرقة أخرى . . وبهـذا قد يتم مصرى دراسته دون أن يلقى عليه درس واحد فى التربية الوطنية النظرية ، وقد طوّاها الاضطراب المستمر فى برامج الفرق المدرسية

هـــذا عن التربية الوطنية النظرية فى المدارس . لكن الوطنية يجب ألا تقتصر فى المدارس على مثل هذه الدروس . فكل علم من العلوم التى تدرس للطلاب قد يصلح مجالا للتربية الوطنية

اللغة العربية : أمثلة القواعد وتطبيق ، موضوعات الإنشاء ، كتب المطالعة والمختار للمحفوظات ، كل هذا ألا يصلح مجالا للتربية الوطنية ؟ إننا مازلنا نطالع فى أمثلة القواعد كثيرا كقولهم " كتب محمد الدرس " فتى يقال بدلا من هذا " رفع محمد العلم " ومثاله كثير ؟ وفى موضوعات الإنشاء : إن السيارة مازلت فى كراساتنا تفاخر القطار منذ عرفت السيارة وعرف القطار . . فتى يتم أجل هذه المفاخرة لنعرج لشيء جديد من نوع جديد يلائم العصر الجديد

والجغرافيا والتاريخ . أليس لنا من موقعنا الجغرافى وثروتنا الجغرافية ما يسمح بأن نجعل من ذكرهما حديث وطنية إلى أبناء الجيل . . ؟ أليس فى تاريخنا ما يسمح بمثل هذا ؟ . .

لماذا تمر هذه الدروس هكذا شيئا جامدا . ولماذا لا تكون عبرا وطنية وعظات قومية تتفق وما يجب أن يكون "

ودروس الحساب ، يا لمسائل الحساب ! . . . مازالت " الحنفية تصب والبالوعة تفرغ " منذ زمن طويل ، وما زالت دروس الحساب أرقاما لا أكثر ولا أقل . . .

أذكر أنى قرأت عن كتاب فى الحساب وضعه "أوتوكوهلر وأولريس جرف" ليعلم تلاميذ المدارس فى ألمانيا الحديثة ، فلننظر مثالا من مسائل ذلك الكتاب ، لنعرف إلى أى حد يستغل هذا الدرس فى تربية الأجيال و إعدادها للقوة والسيادة :

" كان على ألمانيا أن تسلم القوى المتحالفة مقاطعات يبلغ عدد سكانها ٥,٥٧٩,٩١٢ من الأنفس ، فإذا كانت فرنسا قد استولت على الألزاس واللورين ويبلغ عدد سكانها ١,٨٧٥,٠١٤ نسمة ، وبلجيكا استولت على أيبين ملمادى وعدد سكانها ٦٠,٩٢٤ نسمة ، والدانيمارك على شلزويج وهولستين وعدد سكانها ١٦٦٨٩٥ نسمة . وإذ كان انفصال دانزج وميميل سبب خسارة قدرها ٤٧٠٩٩٨ من الأنفس ، والباقى ضم الى بولنده فأوجد :

(ا) مقدار الزيادة فى تعداد بولندا .

(ب) مقدار الخسارة فى عدد السكان الذى أصاب ألمانيا فى شرق الامبراطورية".

وهنا فى مصر : الدين المصرى ، توزيع الثروة العقارية ، الثروة الزراعية ، الصحة والمرض ، العلم والجهل ، حركة الصادرات والواردات ، تعداد الجيش على مر الأيام وعلاقته بالسودان ، أليس فى كل هذا ما يسمح بأن تقع أعين الطلاب على أرقام وتشتغل أذهانهم بحل مسائل تجدى وتفيد "

هذا عن البرامج ، ولكنها ليست كل شىء فى المدرسة ، وهناك ماهو أهم منها وأجدى ، ذلك هو تفكير الأستاذ وروح الأستاذ ، فإن كل لحظة تمر بين الأستاذ وطلابه يمكن أن تستغل فى عبرة وطنية أو درس قومى ، لو كان لدى الأستاذ الاستعداد الكافى لاستغلال وقت الطلاب وتوجيههم هذه الوجهة الطيبة .

وإن كل حركة تصدر عن الأستاذ وكل إشارة منه وكل لفظ يخرج من فمه يمكن أن يستغل فى تربية الأجيال تربية وطنية سليمة . فالطلاب لا يأخذون عن أحد بقدر ماهم آخذون عن أساتذتهم ، ومن الخطر أن يتهاون الأستاذ فى مراعاة ما يجب أن يأخذه طلابه عنه . وحرام أن تضيع قيمة الأجيال هكذا سدى ، لأننا ضللنا أو أهملنا فى كيف ومتى يمكن ويلزم أن يلقن النشء دروس الحياة الوطنية .

فى البيت ، فى المدرسة ، فى الطريق ، فى الملاهى والملاعب ، فى القطر ، وفى كل وسائل الاتصال بالجماهير ... فى كل هذا يجب أن نوجد مجالا للتربية الوطنية ، وفق سياسة حكيمة ، لا بطريق الارتجال .

الآباء والأمهات فى المنازل ، الأساتذة فى المدارس ، القائمون على أمر التعليم فى مصر ، المشرفون على أعمال الإذاعة و برامجها ، الموجهون للحركات الاجتماعية فى البلد ، هيئة الصحافة ، كل هؤلاء مسئولون عن هذا الواجب الوطنى الكبير .

لبعض هؤلاء عذرهم عن تقصيرهم فى الماضى ، فى أنهم عاشوا بتفكير غير الذى نعيش نحن به ، ولكن على كل مسئول فى الدولة ، وعلى كل مثقف أن يؤدى اليوم واجبه فى هذا الأمر .

فمن واجب الدولة أن توضح للرعية قيمة المثل العليا ، وتبين لهم السبل إليها ، وترسم لهم سياسة السير فى هذه السبل ، وعلى كل مثقف أن يعاون الدولة فى تحقيق هذا الأمل بما فى مقدوره من وسائل .

يجب أن يكون لنا غرض سام نسعى له ، ونوجه إليه . ولا بد أن تكون لنا طرق معينة نسلكها للوصول إلى هذا الغرض السامى ويتحتم علينا أن نمر بها . ويلزم أن تكون لنا وسائلنا لترغيب جمهور الأمة فى الأخذ بهذا التوجيه الجديد .

ومن هذا تتكون لنا سياسة وطنية معروفة ، علينا أن نجعلها ثابتة مطردة ، تتناقلها الأجيال وتحفظها وتنميها لتتركها أمانة لكل جيل جديد .

وليس هذا التريث الوطنى مما يحتاج إلى مال حتى يؤجل تنفيذه للضيق المالى ، وهو العذر لكل تأجيل فى اصلاح يؤخر تنفيذه . ولكنه فى حاجة إلى عقول مفكرة ، ثم إلى التنفيذ بغير تردد لخلق مصر الحديثة .

لقد علموا على جماعة من الشباب المصرى أنهم كانوا تقدموا طلابا بالكلية الحربية ، فلما أعلنت الحرب القائمة محلوا فاستردوا أوراقهم من هذه الكلية . لكنى أحد هؤلاء عذرا فى أنهم لم ينشأوا تنشئة تؤدى بهم إلى خير من هذا ، ما دام درس التربية الوطنية الذى أخذوه — إن كانوا أخذوا شيئا منها — هو سخرية الدروس داخل المدرسة ، ومادام التلقين الرسمى الذى تملأ به أمخاخهم خارج المدارس هو من نوع إذاعة اسطوانة "ياعرقسوس" !

أرجو أن يتم قريبا ما يلزم لتكون لنا سياسة فى التربية الوطنية ، واضحة الغاية معلومة الوسائل ، نسعى جميعا لتحقيقها ، حتى يكون فى مصر جيل لا يجد غريبا فى قصة رويت عن جندى أصيب فى إحدى المعارك ، وكان لابد لانقاذ حياته من نقل دم غيره إليه . فلما علم ذلك من أطباء الجيش المعادى لجيشه — وقد وقع فى يد عدوه — طلب أن ينقل إليه دم من أحد رفاقه فى الجنس والوطن ... وقد تعذر ذلك ، فأبى أن ينقلوا إليه دم أى انسان ورضى الموت ، ولم يرض أن يمزجوا دمه بدم غير وطنى .

عماد الدين عبد الحميد